الوحـــدة والجريمة

للكاتب الانكليزي القدير لورد لينوود

للأستاذ أبو جاويد أكمل

ولدت انجليزيا ولكني قضيت الأيام الأولى من عمري في بلدة نائية أجنبية ، وليس لي إخوة ولا أخوات ، وقد توفيت والدتي وأنا في المهد فوجدت في والدي الرفيق والمعلم والصديق ، وقد كان هذا الوالد الأخ الأصغر لأسرة شريفة وبيت عريق . أما ما حدا به إلى ترك بلدته وأصدقائه وتجنب المجتمعات والإقامة ببلدة كالصخرة فقصة قائمة بذاتها لا دخل لها بقصتي هذه

قلت إن والدي أقام ببلدة كالصخرة لأن بلدتنا لم تكن في الواقع إلا كذلك : قفار حالكة عرضة للسافيات ، وأشجار عجزت عن النمو ، وعشب جاف ، وتجاويف لم تهتد إليها النجوم ولم يعرف ضوء الشمس مكانها إلا من بعض فجوات بالصخور التي تعلوها ، تجتازها مياه قاتمة مغبرة ترغى وتزبد أثناء سيرها في طريقها الصخري . هضاب غطتها الثلوج المتراكمة تأوي إليها الطيور الجارحة وينبعث منها صوتها المرعب المخيف إلى عنان السماء التي أبت أن تتدثر بالسحب على ما بها من شحوب وخوف وهرم . كل هذا ينم على حال تلك البلدة التي سلخت بها الأيام الأولى من حياتي . أما مناخها فلم يغير من المناظر التي تحيط بمنزلي إلا قليلاً وإن كان في بعض الأحياء الأخرى يحل صيفها المفاجيء الذي لا يعقبه خريف بشهوره الثلاثة لطول شتائها ؛ وربما في فترات قصيرة الأمد يذوب الثلج في الأودية وتفيض المياه ويظهر نبات أصفر غريب يفتر ثغره عن بسمات خبيثة موجهة لبعض أجزاء من هذه الصخرة العالية لأمثال هذه المناظر التافهة من تقلبات الفصول . قضيت أيام حياتي عاماً

هو نفس الاعتراض على النظرية المادية السابق

أما (ليبنز Lèibniz) ؛ فيقول إن مذهب الحلول هو مذهب فاسد لا يستند إلى مبدأ ديكارت . ويجب أن تكون هذه المبادئ نفسها فاسدة لأنه لا يمكن أن ينتج الفاسد من الصحيح ، فهو إذن ينتقد مبدأ ديكارت . وقد وضع نظرية تدعى (نظرية المونادMonade) التي لا تقبل أن الجوهر هو إمتداد بل هو في القوة . فالروح والجسد من طبيعة واحدة ؛ وبما أن النفس مركبة من موناد واحد فالانعكاسات التي تنعكس فيها تظهر جلية ، بعكس الجسد المركب من مجموع المونادز . فالانعكاسات فيه مختلطة وكل موناد ينعكس على الآخر ، فموناد النفس ينعكس على الجسد ؛ وموناد الجسد ينعكس في موناد النفس ؛ على أن ليبنز لا يستطيع أن يقبل كيف يؤثر جسم في جسم فيقول : « أخذت أتأمل في مسألة إتحاد الروح بالجسد ، فلم أجد واسطة تدخل بعض أشياء في النفس ، وبالعكس لم أدرك أن جوهراً يؤثر في جوهر ؛ فلا أستطيع قبول تأثير الجواهر بل أقول : لا يؤثر إلا الاله » ومن هنا نشأت نظريته السماة (نظرية التناسق Harmonie pèctablie) التي يقول فيها : إن كل موناد هو عبارة عن عالم صغير يعكس كل العوالم الأخرى ولكن بإرادة الاله وحده . ويقول أيضاً : إن الاله خلق النفس أو أي وحدة أخرى حقيقية ؛ بصورة أن كل شكل يتولد داخلها بمضويته بالنسبة إليها : وبصورة متوافقة تماماً مع الأشياء الخارجية ؛ وهذا التوافق مراد منه — أي من قبل الاله — ولعمري إن نظريات ليبنز لهي خلاصة ما توصل إليه جمهور الفلاسفة في أمر الروح ؛ ولقد انكشفت له الحجب عن الحقيقة ، وهو الفيلسوف الأوحد الذي يكاد يقترب من الحقيقة الناصعة

محمد حسن البقاعي

فعاماً . وكان والدى مغرماً بالعلوم الطبيعية ومشاركاً فى باقى العلوم فدرس لى كل ما عنده . وكان للطبيعة الفضل فى سد النقص بما أوحت إلى قلبى من دروس عميقة صامتة وهى تكشر عن نابها وتعبس . علمت قدمى الركل وذراعى اللكم ونفثت فى رغباتى روح الحياة وألهمت طباعي الجد لا الهزل . علمتنى كيف أعانقها وإن كان قوامها معوجاً وشكلها غير مغر . أفر من سواها وأهرب من مصادقة رجل وأنثى من ابتسامة أنثى . أهرب من بكاء الطفولة وأخشى من التقيد والآمال وملذات الوجود كما أخشى من اللعنة والعذاب ؛ ومع ذلك كانت لى فى هـذه الصخرة العابسة وتحت هذه السماء الشـاحبة متعات لا يهتدى إلى كنهها أهل الحضر الذين يجدون لذتهم في أريج العطر وعبيق الورد ، فما هذه المتعات ؟ إن لها من المتنوعات والأشكال المختلفة عشرات الألوف كما لها من أفياء السرور ، ولـكن ليس لها من الأسماء المتداولة إلا اسم واحد ، فما هي هذه المتعات ؟ هي «الوحدة»

مات والدى وأنا فى الثامنة عشرة فانتقلت إلى كنف عمى وأزمعت الرحيل إلى لندن فوصلتها نحيفاً عبوساً مفتول الساعد قوى البنية ؛ بيد أنى فى نظر من حولى كنت وحشاً فى هيئتى وطباعى . كان لهم أن يضحكوا منى ، ولـكنى أرهبتهم بصورتى ؛ وكان لهم أن يغيروا من طبعى ، ولـكنى أثرت فيهم وألقيت على بهجتهم رهبة فكانوا وجلين منى وإن لم أتكلم إلا نادراً ولم أجالسهم إلا مجلس الغريب الصامت المنقاد . ما من أحد منهم يستطيع معاشرتى ويكون مسروراً أو مرتاحاً . هذا ما شعرت به وقد أبغضهم إذ لم يمنحونى حبهم

مضت ثلاث سنين بلغت فيها سن الرشد ، فطالبت بثروتى واحتقرت الحياة الاجتماعية ، وذبت شوقاً مرة أخرى إلى الوحدة ، فصممت على الرحيل إلى الأراضى النائية الخالية من السكان ، تلك الأراضى التى لم يرجع منها زائر يتحدث عنها ممن طوحت بهم الأقدار فى أحضانها

استأذنت عمى وزوجه وأولاده وبدأت الحج فاجتزت الرمال المحرقة ، وقطعت الفيافى الشاسعة ، حتى وصلت إلى غابات أفريقيا الـكثيفة التى لم تطأها قدم ، ولم يشوش صوت إنسان هـذا الجلال المهيب الذى يخيم على وحدتها كما كان يخيم قبل الوجود على العوالم المضطربة . هناك حيث تنمو الفطرة الأزلية وتذبل بغير إزعاج أو تغيير يطرأ عليها من اضطراب ما يحيط بها من العوالم . هناك حيث تنبت البذور أشجاراً تعيش أعماراً لا تحصى ولا تعد ، ثم تتساقط أوراقها ويسطو عليها البلى ويغتريها الفساد ويدركها الفناء . هناك حيث يخطو الزمن المتثاقل لم يشهد تقلباته الهائلة الصامتة إلا أسد شارد ، أو أفعوان جسيم ، يكبر مائة مرة تلك البوا التى يباهى السائحون برؤيتها . هناك تحت الظلال الوارفة التي آوى إليها وقت القيلولة كنت أسمع وقع أقدام كالجند وأصغى إلى وسوسة الأشجار الباسقة وهى تدك وتهدم ، وأرى من خلال فروع الأشجار الملتفة البهموث عابراً سبيله الوعر وعيناه تتقدان كالجمر وأنيابه البيضاء فى فكه الشرس جاثمة براقة كأعمدة من الصوان تشع فى غار . ذلك هو الوحش الذى جعلت له دون غيره هذه الفدافد موطناً ؛ ذلك هو الوحش الذى لم يتبدل من يوم أن عرفت المياه سبيلها فى الـكون ؛ ذلك هو الوحش الذي لم تبصره عين آدمى غيرى

تسللت فصول الأعوام لم أحصها عدًّا ، إذ لا أنيس يحببها إلىَّ ، ولا أثر يترسم من أعمال ابن آدم القذرة يبغضنى فيها . أقول كرت الفصول ونضج شبابى حتى بلغت الرجولة وجلل الشيب مفرق بالثغام ، ولم ألبث أن استولى علىَّ ميل دفين لا يقر على حال وناجيت قلبى المذنب أن لابد من نظرة أو عودة إلى عشيرتى

قفلت أطوى الفدافد إلى أن بلغت المدائن فتدثرت بلباس أهلها إذ لم أكن فى البيداء إلا عارى الجسد ، ولما بلغت الثغر أقلتنى سفينة إلى انجلترا كان فيها رجل هو وحده الذى لم يتجنب صداقتى ولم يخش غضبى ، يستولى عليه النزق ، ويملأه الغرور ، ويتيه عجباً كما يختال عادة هؤلاء الذين استوطنوا المدائن ، واتخذوا الـكلام غذاء عقولهم . كان طفيليًّا سخيفاً ونسيجاً قذراً من آراء سافلة ، وكان الرعب الشائن هو الخصلة الفريدة التى لم تفارقها نفسه ، فحال أن ترهبه أو تسكته أو تهزمه ؛ يتعقبنى دائماً ويلازمنى كظلى ليس لقوة أن تنزعه منى ، وكلما بصرت به شعرت بدوار ، وكان من هؤلاء الطغام المحتقرين الذين ترتعد الفرائص لرؤيتهم

كنت أقاطعه مراراً كلما خاطبنى . ولـكم هممت أن أقبض عليه وأقذف به إلى البحر للحيتان التى كانت تسبح ليل نهار حول السفينة بعيون براقة وأنياب تواقة ، إلا أن نظرات الجميع كانت

متجهة إلينا فكبحت جماح نفسي وعدلت عن ذلك مغمضاً عيني على مضض ؛ وكلما فتحتهما ثانية وجدته بجانبي وصوته الأجش يرن في أذني الكارهة سماعه

في ذات ليلة تنبهت من نومي على صياح الرجال وهم يقسمون فأسرعت إلى سطح السفين وكنا قد ارتطمنا بصخرة فما أروعه منظرا ! إنه كان هائلا . فضوء القمر هادىء والبحر على فيروزته نائم . في وسط هذا السكون الصامت الناعم الذي شمل كل شيء انعجى أثر ثلثمائة وخمسين نسمة من الوجود . لزمت عزلتي لم أساعد أحداً من المغرقين بل ظللت أنظر ، وإذا بصوت كصوت أفعى ينساب إلى أذني فالتفت ورأيت مزعجي وقد انعكس ضوء القمر على وجهه وهو يتمتم كالسكارى وعينه الذابلة الزرقاء تحملق وهو يقول : لا نفترق حتى في هذا المكان

جرى الدم حاراً في عروقي وعزمت على أن أرميه في البحر الذي كان يغمرنا سريعاً ، ولكن خيل إلي أن القمر يرمقني كما ترمقني عين السماء ولم أتجاسر على أن أقتله . ولما كنت لا أستطيع البقاء كي أموت مع المغرقين قذفت بنفسي نحو صخرة وقد طاردني حوت فأرهبته ، وبعد برهة وجيزة كان لديه القدر الكافي لإشباع نهمه سمعت دوياً فصيحات يأس ممتزجة مزعجة ، يأس ثلثمائة وخمسين قلباً سكنت في لحظة . قلت في نفسي وقد داخلني سرور عميق إن صوته لا محالة بين أصواتهم وقد افترقنا . وما وصلت الشاطىء حتى اضطجعت للنوم

وفي صباح اليوم الثاني انفتحت عيناي على أرض أجمل من أحلام الشباب وقد ابتسمت الشمس وأشرقت على أنهار فضية ، ومالت الأشجار بثمار أرجوانية عسجدية ، وتلألأ كاللماس الندى في أرض تحلت بأزهار ذات أريج عبق ممتع ، وقد حلقت عشرات الألوف من الطير بأجنحة براقة امتزجت ألوان قزح بها وطارت من على النبات والأشجار وملأت الجو تغريداً من سرورها . البحر يزأر تحت قدمي لا أثر في جبينه اللامع لتأكل سالف ؛ أما السماء فكانت تدفىء عروقي بأشعتها الذهبية التي لم تعترضها سحب . استيقظت نشيطاً مرحاً وجست خلال هذا المكان الجديد الذي اهتديت إليه فتسلقت تلا ووجدت أنني في جزيرة صغيرة لا أثر لرجل فيها ، فارتاح قلبي وصحت طرباً لما رأيت أني سأكون وحيداً مرة أخرى ، ولكني لم أكد أنحدر من التل وأصل إلى نهايته حتى لمحت رجلاً يقترب مني . نظرت إليه فارتاب ، قلبي ثم دنا مني فاذا بالبغيض المضطهد يقف أمامي بعد أن نجا من الغرق ! لقد عاد بتمتمته وعينه البراقة ، وما لبث أن طوقني بذراعيه فشعرت بأن أفعى تحتضنني وقال بصوت أجش خشن : مرحى مرحى ! سنبقى معاً أيها الصديق

فنظرت إليه وأنا مقطب الجبين لم ألتفظ بكلمة ، وكان بجانب الشاطىء غار كبير فقصدته ودخلت فيه وهو يتبعني قائلا : سنعيش في هناء هنا لا نفترق إلى الأبد . فارتعشت شفتي وانقبضت يدي.

قد انتصف اليوم وغلبني الجوع فخرجت واصطدت غزالاً وشويت جزءاً منه على نار من أخشاب عطرية فأخذ الرجل يأكل ويزدرد ويقهقه ، وتمنيت لو غص بالعظام . ولما انتهى قال ليس لدينا هنا إلا النذر اليسير من الانشراح ، بيد أني لم أزل محافظاً على صمتي ، وأخيراً تمدد في ركن من الغار ونام ، فنظرت إليه ورأيت نومه عميقاً ثم خرجت ودحرجت حجراً كبيراً عند باب الغار واتخذت سبيلي إلى الجزء المقابل من الجزيرة . وجاء دوري في الضحك ووجدت غاراً آخر وهيأت فراشاً من العشب والأوراق ، ومن الأخشاب صنعت منضدة ، وتطلعت من فوهة الغار فرأيت البحار العريضة أمامي وقلت الآن سأكون منفرداً . ولما أقبل اليوم الثاني خرجت مرة أخرى واصطدت جدياً وعدت به وجهزته كما سبق . ولما كنت غير جائع لم أستطع تناول الطعام وهمت على وجهي في أنحاء الجزيرة ، وعند عودتي كانت الشمس قد غربت فدخلت الغار ، فجلست على فراشي ؛ ولكن بجوار منضدتي كان الرجل الذي ظننت أني دفنته حياً بالغار الأول . وما إن وقع نظره عليّ حتى ضحك وألقى بالعظمة التي كان ينهشها وقال : آه لقد عولت على أن تعلمني خدعة نادرة ، ولكن بالغار نفقاً لم تفطن إليه وقد خرجت منه للبحث عنك ، وهذه مسألة هينة ، لأن الجزيرة صغيرة ، أما وقد تقابلنا فلا فراق بعد

فقلت : قم واتبعني . ففعل ، وما ترك من الطعام كان قذى في عيني لأنه مد إليه يده ، وأخيراً فكرت أأزرع ليحصد هذا المخلوق ؛ وشعرت بقلبي وقد تحجر

صعدت إلى صخرة عالية وقلت : انظر حولك وتطلع إلى هذا الجدول الذي يشطر الجزيرة فستقيم في شطر وأقيم في الآخر. ومن

المحال أن تجمعنا بقمة واحدة أو يضمنا خوان ، فقال : لا يتأتى ذلك إذ ليس فى مقدورى أن أصطاد الغزلان أو أقتنص الجديان . وإذا لم تتعهدنى بالغذاء فسأموت جوعاً. قلت : ألا توجد فاكهة وطيور تستطيع اقتناصها ، وسمك يقذف به البحر ؟ فقهقه وقال : لا أهواها كما أحب لحم الجديان والغزلان . فقلت : افهم الآن وانظر إلى هذا الحجر الساكن من الشاطئ الثانى لهذا الجدول . سأترك لك كل يوم عنده جدياً أو غزالاً حتى تنال من الطعام ماتشتهى ، ولكن إذا اجتزت هذا الجدول ودخلت فى ملكى فمن المؤكد أنى سأذبحك . نزلت من الصخرة وأرشدت الرجل إلى شاطئ الجدول ، فقال : لا أعرف السباحة ، فحملته على كتفى واجتزت الجدول ووجدت له غاراً وهيأت له فراشاً ومنضدة كما صنعت لنفسى ، ثم تركته ، ولما حاذيت شاطئ الجدول ثانية كدت أطير من الفرح ورفعت صوتى قائلاً : سأكون الآن وحيداً

مر يومان وأنا منفرد ، وفى الثالث خرجت للقنص وكان وقت القيلولة وأعيانى التعب حينما عدت ؛ وإذ دخلت مغارتى وجدت الرجل منطرحاً على فراشى وقال : ها ، ها . أنا هنا لقد سئمت الوحدة فى منزلى وجئت لأعيش معك ثانية . فعبست وقطبت مابين حاجبى وقلت : من المؤكد أنى ذابحك . وجذبته من فراشى بذراعى وأخذته فى الهواء الطلق ووقفنا سوياً على الرمال قريباً من البحر العظيم . استولى علىّ الخوف وداخلنى ذعر من السكون الشامل الذى يخيم على الوحدة مع أنى لاأبالى بالناس لو أحاطوا بنا آلافاً لذبحته أمام أعينهم . وما راعنى إلا أننا وحيدان فى الصحراء لا ثالث معنا إلا الله . أرخيت عنان قبضتى ، وقلت له : أقسم لى بأنك لا تضايقنى بعد ، وأنك تحافظ على حدود منازلنا ولا تجتازها وأنا أعفو عنك . فقال : لا أستطيع القسم ، وخير لى أن أموت فى الحال من أن أفارق وجه آدمى صبوح ولو كان عدواً لى . ولهذه الكلمات عاودنى حنق فطرحته أرضاً ووضعت قدمى على صدره ويدى فى عنقه ، فحاول الخلاص برهة ، ثم كان جثة هامدة . تولانى الخوف على أثر ذلك ؛ ولما نظرت إلى وجهه ظننت أنه عاد إلى الحياة وخيل إلى أن عينه الذابلة الزرقاء ترنو إلى ، وأن ابتسامته الخبيثة لم تفارق شفتيه ، كما أن يديه اللتين كانتا قابضتين على الرمال فى حشرجة الموت امتدتا نحوى فضغطت على صدره مرة أخرى وحفرت حفيراً بجانب الشاطئ ، ووارته التراب وقلت : صرت الآن وحيداً

هنا تجلت لى المعانى الحقيقية للوحدة والكآبة ولعدم الاستقرار وللعزلة ، فارتعشت وترنح كل عضو من هيكلى الجبار كأنى طفل ترتعد من الظلام فرائسه ، وقفّ شعر رأسى وتقلصت عضلاتى ، ولم أستطع البقاء فى هذه البقعة دقيقة واحدة ، ولو عاد إلى فيها شبابى . غادرتها هرباً وجبت هذه الجزيرة ، وكلما يممت شطر البحر اصطكت أسنانى واشتقت إلى صحراء شاسعة لا نهاية لها أتوارى فيها إلى الأبد

عند الغروب عدت إلى مغارتى وجلست فى زاوية من الفراش وأخفيت وجهى بكلتا الراحتين ، وتوهمت أنى أسمع ضوضاء فرفعت بصرى . ولعمرى لقد رأيت الرجل الذى أجهزت عليه ودفنته مقيما بالطرف الثانى من الفراش

هناك على بعد ست أقدام منى كان جالساً يشير إلى برأسه وينظر بعين شاحبة ويقهقه . وليت الأدبار من الغار ودخلت فى غابة واستلقيت ، ولكن هناك على بعد ست أقدام منى كان وجه ذلك الرجل أيضاً

أيقظت شجاعتى وخاطبته ولكن لم يبد جواباً . حاولت القبض عليه فأفلت وكان على بعد ست أقدام ، وجهه دائماً أمامى خررت على الأرض ساجداً وغطيت وجهى بأديمها وآليت لا أرفع رأسى حتى يحين الليل وينسدل الظلام

وقتئذ قمت وعدت إلى الغار واضطجعت فى فراشى ، فنام بجانبى الرجل ، فغضبت وحاولت أن آخذ بتلابيبه فلم أتمكن

أخيراً أغمضت جفنى ورقد بجانبى . مرت الأيام والحال لا تتغير فى الداخل ولا فى الخارج ، فى المنزل وفى الفراش ، فى القيام وفى الرقاد ، بالليل أو أثناء النهار . هناك فى طرف فراشى وعلى بعد ست أقدام لا أكثر ولا أقل كان الميت الشاحب

وما كدت أنظر إلى الأرض الجميلة والسماء الصافية وإلى هذا الصاحب المخيف حتى قلت : لا أعيش وحيداً بعد ذلك ، فضحك الرجل بملء شدقيه . رست فى النهاية سفين فحييتها وأقلتنى وما وطئت قدمى سطحها حتى ظننت أنى بمنجى من مزعجى ، ولكن سرعان ما رأيته يعتلى سطحها ، واجتهدت عبثاً أن ألقيه فى اليم ، ولكنه كان بجانبى دائماً يأكل منى وينام كسابق عهده

وصلت إلى مسقط رأسى واندمجت فى الزحام . شهدت الولائم وسمعت الألحان ، جعلت ثلاثين رجلاً يجاسون منى وظللت أراقبه